

حول تاريخ اللغة العربية

(مقابلة أجرتها الاستاذة سلام دياب مع الدكتور جمال كولغلي)
(المدرسة العليا لتكوين المعلمين بليون /14/11/2007)

الدكتور جمال كولغلي

هو أستاذ أخصائي في اللغة العربية وعلومها ومدير أبحاث في مركز البحوث العلمية منذ عام 1990. كتاباته غزيرة لا يمكن حصرها تشمل كل ما يتعلق باللغة العربية من نحو ولسانيات، نذكر على سبيل المثال مجالات الصوتيات والصرف في اللغة العامة والفصحى وكذلك تاريخ اللغة العربية. من بين مؤلفاته الهامة التي صدرت حديثاً باللغة الفرنسية، نذكر :

Le résumé de la grammaire arabe par Zama Šarī, ENS-Éditions, Lyon 2007.
L'arabe, Que sais-je ?, Presses Universitaires de France, Paris, 2007

سننطلق في هذا الحوار من مجموعة أسئلة عامة نتساءلها جميعاً.

أهلاً وسهلاً ...

1. هل كان الناس يتحدثون في عصر النبي اللغة العربية الفصحى باستخدام الحركات الإعرابية؟ وما كان الوضع اللغوي آنذاك؟

للإجابة عن هذا السؤال بشيء من الوضوح يجب أولاً أن نتفق على المقصودين بهذا السؤال أي من "الناس" الذين تستفسرين عن لغتهم في عصر النبي. طبعاً تقصدان سكان الجزيرة العربية ولكن ينبغي ألا ننسى بهذا الصدد أن بعض سكان الجزيرة العربية في ذلك الوقت لم يكونوا يتكلمون بلغة الضاد. أعني بالتحديد أهل اليمن الذين كانوا آنذاك كما هو معلوم ينطقون بلغاتهم الخاصة بهم: اللغات العربية الجنوبية كالسبائية والحميرية وما إلى ذلك... فهؤلاء إذن لم يكونوا يتكلمون العربية ناهيك عن الفصحى... ثم إن هنالك جماعة ثانية من سكان الجزيرة العربية يحملنا ما لدينا من المعلومات إلى الشك فيما لو كانوا يتكلمون العربية الفصحى وإن كانت نفس المعلومات تؤكد لنا أنهم كانوا فعلاً من أهل اللغة العربية بمفهومها الشامل. ودون أن نخوض في التفاصيل يمكن أن نقول إن سكان التخوم الشمالية للجزيرة العربية أي الصحراوات الشامية والذين كانوا يُعرفون عموماً باسم الأنباط كانوا على ما نَحْمَن يستعملون في ممارساتهم اللغوية العادية عربية خالية من الإعراب تشير إليها المصادر العربية القديمة باسم "النبطي". فإذا أخذنا هذه التوضيحات بعين الاعتبار وحصرنا سؤالك في سكان قلب الجزيرة العربية من أهل نجد والحجاز (وكذلك منطقة الخليج على الأرجح) فيمكننا أن نحيب عنه بالإيجاب: لا يشك أغلبية المتخصصين في أن هؤلاء الأقوام كانت لغتهم العادية لغة عربية فصيحة وإذا أردنا أن نبالغ في الدقة والتفصيل قلنا إنهم كانوا يتكلمون مجموعة من "اللهجات" - كانوا يسمونها "لغات" - كانت شديدة القرابة إلى بعضها البعض وإلى ما نسميه اليوم العربية الفصحى. ومما يقوّي هذا الاعتقاد اعتبار الظاهرة القرآنية نفسها: فلا يمكن التشكيك في أن الرسالة القرآنية بما جاء فيها من الوعد والوعيد ومن النصائح والتعليمات ومن الأمر والنهي كانت موجهة إلى هؤلاء الأقوام تقصدهم وتخطبهم مباشرة بلغتهم التي يعرفونها ويفقهونها تماماً بحيث لا يمكنهم أن ينكروا أنهم تلقوا الرسالة وأدركوا لفظها ومعناها. واللسان الذي صيغ به النصّ القرآني هو "لسان عربيّ

مبين". وبالتالي فلا يمكن التشكيك في أنّ عرب قلب الجزيرة كانوا يتكلمون في عهد صدر الإسلام "لغات" قريبة جدا – إن لم نقل مماثلة تماما – لما نسميه اليوم العربية الفصحى. وبالتالي فالجواب عن القسم الثاني من سؤالك يكون أنّ الوضع اللغوي في الجزيرة العربية في فجر الإسلام كان يتسم بشيء من التنوع : ففي الجنوب الغربي كانت هناك مجموعة من اللغات المتقاربة والمنتمية إلى فصيلة "العربية الجنوبية" التي تختلف عن الفصيلة العربية الشمالية التي تنتسب إليها جميع أنواع العربية المألوفة لدينا . وفي شمال الجزيرة فيما يسمى أحيانا بمنطقة الهلال الخصيب كانت تستعمل في غالب الظن لهجات عربية أقرب في نمطها اللغوي إلى العاميات المستعملة اليوم منها إلى الفصحى وتتسم خاصة بتخليها شبه التام عن الإعراب . أما في وسط الجزيرة فالأرجح أنهم كانوا لا يزالون يستعملون "لغات" يمكن اعتبارها جميعا تنوعات طفيفة للعربية الفصحى .

2. أصحح أن مختلف اللهجات العربية التي نتكلمها اليوم نشأت عن فساد اللغة الفصحى، كما نقرأه في مقدمة ابن خلدون ؟

سأبدأ بملاحظتين :

الشيء الأول الذي أود أن أوضحه فيما يخص سؤالك هذا هو أن مجموعة اللهجات العربية المستعملة اليوم عبر العالم العربي لم تتولد من العربية الفصحى، وهذا شيء يسهل فهمه على أساس ما سبق وقلناه عن الوضع اللغوي الأثيل في الجزيرة وخاصة عن وجود تلك اللغات العربية النسبية والقريبة من الفصحى بحيث كانت كل قبيلة عربية تقريبا لها لغتها التي كانت تختلف في بعض تفاصيلها الصرفية والنحوية والمعجمية عن لغات القبائل الأخرى. ومن الطبيعي أن نقدر أنّ القبائل التي شاركت في الفتوحات الإسلامية واستوطنت مختلف المناطق التي نزلت بها قد حافظت عموما على لغاتها (وإن كان بلا شك قد حصل كذلك قدر من تداخل اللغات نتيجة لاختلاط الناس بعضهم ببعض). فالفكرة الأقرب إلى الصواب هي أن اللهجات العربية المستعملة اليوم عبر العالم العربي تنحدر من تلك اللغات المختلفة (وإن كانت متقاربة) وأنها بحكم تأثير مرور الزمن تحولت تدريجيا مبتعدة عن بعضها البعض وعن الفصحى التي بقيت على ما كانت عليه بفضل تدوينها وتثبيتها من قبل علماء اللغة منذ القرن الثاني للهجرة .

الملاحظة الثانية تتعلق بفكرة " الفساد " . هي طبعا فكرة شائعة في الثقافات القديمة التي عرفت عهداً ذهبياً في الماضي، بحيث يميل الناس إلى الحكم على كل ما تغير وصار مخالفا لما ورث عن ذلك العهد الذهبي بأنه انحطاط وفساد... ولكن، ولا مؤاخذه، مفهوم الفساد هذا لا محلّ له في الخطاب العلمي. العلماء (ومن بينهم علماء اللسان) يلاحظون أن الأشياء التي يتدارسونها تتحول عبر التاريخ ، فيحاولون أن يستنبطوا من دراستها قوانين هذا التحول وأن يفهموا حتميته، أي لماذا كان لا بد للأشياء أن تتغير ولماذا لم يكن مفرّ من أن تتغير في هذا الاتجاه وليس في ذلك . هكذا صاغ علماء اللسان قوانين التطور التاريخي للغات البشرية (لجميع اللغات بما فيها العربية) وهذه القوانين تتسم بدقة شبه رياضية، وإذا ما طبقناها على

العربية استطعنا أن نفهم حتمية تحولها من مراحلها القديمة إلى ما هي عليه الآن . وبالطبع ليس في كل ذلك أي فساد ولا تقهقر ولا أي شيء من هذا القبيل ...

إذن من وجهة نظر علماء اللسان تغير اللغات عبر الزمن أمر طبيعي وحتمي بحيث لا نعرف لغة واحدة ظهرت في وقت ما من التاريخ ثم استطاعت أن تستمر عبر التاريخ دون أن تتغير كثيراً أو قليلاً ... هذه نقطة أساسية ينبغي ألا ننساها أبداً في مناقشة كهذه. ولو كان الأمر يتوقف على لغة " عادية " مثل المئات بل الألوف من اللغات التي استعملتها مجموعات لا تعد من البشر لانتهد المناقشة عند الاعتراف بهذه الحقيقة.

ولكن أمر العربية يختلف عن أمر أغلبية اللغات لسببين مهمين يجعلان منها لغة مميزة : أول هذين الأمرين هو أنّ العربية تنتمي إلى المجموعة الصغيرة نسبياً من اللغات التي زوّدت بنظام كتابي وبجهاز متكامل من الأدوات النحوية والمعجمية التي ضبّطت قواعد استعمالها كما حُمّلت بمسؤولية تدوين تراث ثقافي مكتوب يُعدّ من بين أوسع ما أنتج في تاريخ البشرية. وبفضل ذلك دخلت العربية في النادي الصغير الذي يضمّ ما يُعرف باللغات الثقافية الكبرى. والتاريخ يرينا أنّ هذه اللغات وإن تغير شكلها المنطوق بحكم مرور الزمن (شأنها في ذلك شأن جميع اللغات) فإنّ شكلها المكتوب يقاوم التغير حتى يبقى التراث الثقافي الذي تحمله في متناول البشرية عبر العصور. الأمر الثاني الذي يميز العربية عن أغلبية اللغات (وهذا الأمر هو في الواقع الأول تاريخياً) هو أن العربية تنتمي علاوة على ذلك إلى المجموعة الأخصّ (والأقلّ عدداً) من اللغات التي شاء لها القدر أن تحمل إلى البشر نصّاً مقدساً أصبح أساس دين اعتنقه جزء لا يستهان به من سكان المعمورة. والتاريخ يشهد أيضاً على أنّ مثل هذه اللغات لها قدرة خاصة على مقاومة عوامل التغير لا تملكه اللغات العادية.

وخلاصة كل ذلك أن اللغة العربية توجد اليوم بيننا تحت شكلين : الشكل الأول هو شكل مكتوب (في الغالب وإن كان استعماله المنطوق ممكناً ووارداً بالفعل في ظروف معينة) وهو شكل يقرب كثيراً إلى ما كانت عليه هذه اللغة منذ قرون مضت وهذا الشكل هو المستعمل في الممارسات الثقافية "العالية" كالتعليم والمراسم السياسية والدينية الهامة وما إلى ذلك. والشكل الثاني هو شكل شفهي ناتج عن قوانين التحول التاريخي للغات وهو الشكل المستعمل في الممارسات اللغوية العادية العفوية. وكما هو متوقع في مثل هذه الحالات فإن الشكل اللغوي المرتبط بالممارسات الاجتماعية ذات المكانة المرموقة يحظى عند أغلبية مستعملي اللغة بالتقدير والإكبار ويوصف بأنه " اللغة الحقيقية " بينما لا يرون في الشكل اللغوي المتداول في الممارسات العادية إلا " لهجات عامية " منحطة ، ناتجة عن فساد اللغة. هذه الآراء لا أساس لها من الصحة طبعاً ولكنها متداولة تداولاً واسعاً مع الأسف... والذين يقولون بها لا يدركون أنّ هذه العامية التي يحتقرونها هي التي حافظت على الشخصية العربية وقيمها طيلة العهود الكالحة التي كانت فيها الثقافة العربية " العليا " نسياً منسياً تحت وطأة الاستعمار الأجنبي ... ولكن نستطيع أن نلتمس لهم العذر إذا اعتبرنا أن اللغة العربية المكتوبة كانت دائماً رمز الثقافة الموحدة التي تربط بين جميع أنحاء العالم العربي بينما لم تجمع اللهجات إلا مناطق محدودة ومتفرقة من العالم العربي ومن هذا الوجه يصح أن يعترف للغة الموحدة بمزية خاصة وبفضل ليس لغيرها .

3. يقال إن المعلقات هي قصائد معلقة على باب الكعبة. برأيك بأية أبجدية كتبت هذه القصائد؟

قبل أن نتساءل بأي أبجدية كتبت المعلقات يحسن بنا أن نتوقف عند مسألة صحة الخبر الوارد عن كتابتها أصلاً. بصراحة، هذه الرواية المعروفة والجميلة لا يبدو لي أنها تصمد لدى التحميم والتحليل النقدي الصارم وذلك لأسباب :

أولاً ينبغي أن نتذكر أن الشعر العربي القديم كان في بيئته الأصلية أمراً شفهياً : كان الشعر يلقى أمام مستمعيه وكان يلقى رواة متخصصون يحفظونه في ذاكرتهم ثم يعيدونه على مسامع جمهورهم وكان هذا الإلقاء " المحترف " (إن جاز التعبير) جزءاً لا يتجزأ من المتعة التي يشعر بها الجمهور .

ثم لا ننس أن الأمية، عدم معرفة الكتابة والقراءة، كانت الواقع العادي الطبيعي بين الناس في ذلك الوقت. فمن عسى والحالة هذه أن يقرأ قصيدة معلقة على أي باب كان ؟

وأخيراً وليس آخراً يجب ألا نغفل ما كان عليه الخط العربي في تلك العصور كما تشهد عليه الآثار القديمة التي وصلتنا : فهذا الخط في مراحلها الأولى كان ناقصاً إلى أقصى الحدود لا يميز بين العديد من الحروف العربية بحيث لم يكن يستطيع أن يقرأ نصاً مكتوباً بذلك الخط إلا الذي كتبه أصلاً .

كل ذلك يدعو طبعاً إلى التشكيك في صحة الأخبار الواردة عن كتابة المعلقات ناهيك عن تعليقها على أي باب من الأبواب. فأغلب الظن أن هذه الروايات تعبير ساذج عن مدى تقدير العرب للشعر عامة والمعلقات خاصة ولا ينبغي أن نبحث عن أكثر من ذلك بخصوص هذه الخرافات ...

4. ما هو دور القرآن في تعويد اللغة الفصحى ؟

كان للقرآن دور أساسي في تعويد اللغة العربية ، وكان هذا الدور متعدد الجوانب. مثلاً ضرورة تدوين النص القرآني بخط واضح لا يدع مجالاً للالتباس والخلاف أدت إلى إصلاح الكتابة العربية وخاصة إلى تزويدها بالتنقيط المعجمي للتفريق بين الحروف ذات الرسم المشترك وبالرموز الدالة على الحركات والتشديد وما إلى ذلك. كذلك ضرورة تفسير القرآن خاصة للمسلمين الجدد من غير العرب أدت إلى وضع كتب التفسير الأولى التي تحولت تدريجياً عن طريق التعمق والتخصص إلى كتب نحو متكاملة وكتب لغة وقواميس كما أدت كذلك إلى تدوين الشعر القديم نظراً لأهميته لشرح مفردات القرآن. كما أنّ العناية بقراءة القرآن قراءة صحيحة أدت إلى وضع أسس العلوم الصوتية والصرفية. وفي مرحلة لاحقة وفي إطار الاهتمام المتزايد بظاهرة الإعجاز القرآني ظهرت العلوم البلاغية...

إذن كما ترين جميع جوانب تطور العلوم اللغوية العربية كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً ومباشراً بالقرآن ... هذا بغض النظر عن الدور التوجيهي الذي لعبه القرآن كنموذج لغوي في التطور اللاحق للغة العربية ...

5. كيف ومتى أصبحت اللغة العربية لغة رسمية للإمبراطورية العربية ؟

القرار الرسمي الذي جعل من اللغة العربية اللغة الرسمية للدولة الإسلامية اتخذته الخليفة الأموي عبد الملك ابن مروان الذي حكم في دمشق ما بين 685م و705م. عندما تولى الحكم هذا الخليفة النشيط والحازم كانت الدولة في أزمة خطيرة إذ كانت هناك خلافات حادة حول مشروعية الحكم الأموي وصلت إلى حد قيام بعض المعارضين بتنظيم حركات انفصالية ضد هذا الحكم . ويمكن القول إن عهد عبد الملك كان كله موجهاً إلى مواجهة هذه الحركات وكبحها وإرساء سلطة الحكومة المركزية إرساءً حاسماً. فمن بين القرارات التي اتخذها بهذا القصد وضع عملة رسمية موحدة للدولة الإسلامية ، وإقامة مصلحة مركزية للبريد تربط بين جميع أطراف الإمبراطورية وشق طرقاً تسهل اتصال كل الأقاليم بعضها ببعض وأخيراً وليس آخراً جعل اللغة العربية اللغة الرسمية الوحيدة للدولة . فحتى ذلك الحين كان المسلمون قد حافظوا في كل ما يتعلق بإدارة البلدان التي فتحوها على أساليب الإدارة التي وجدوها بما في ذلك اللغات التي كانت مستعملة قبل الفتوحات الإسلامية لإدارة شؤون الناس في هذه البلدان وذلك قصد تسهيل الأمور. وهذا يعني أن كل التعاملات بين الدولة المركزية وهذه المناطق كانت تتطلب مترجمين الأمر الذي يشكل تعقيداً مستمراً وفي بعض الأحيان يسبب غموضاً وسوء تفاهم في العلاقات بين السلطة المركزية والأقاليم . فقرار جعل العربية اللغة الرسمية الفريدة ينسجم تماماً مع التيار العام لقرارات عبد الملك ابن مروان الهادفة إلى النهوض بمستوى فعالية الدولة وقدرتها على ضبط الأمور ومراقبتها ...

والجدير بالذكر أن هذا القرار السياسي صاحبه قرار "تقني" وهو تشكيل لجنة من الخبراء (يقال إنه كان يرأسها والي العراق الرهيب الحجاج ابن يوسف الثقفي) كلفت بإصلاح الكتابة العربية وقد أشرت إلى ذلك منذ لحظة ...

غني عن القول إن قرار جعل اللغة العربية لغة رسمية للدولة كان له بالغ الأثر في مستقبلها. فقد كان مؤكداً أنها كانت اللغة الدينية للمسلمين ولغة الفاتحين العرب، ولكن جعلها اللغة الوحيدة للمعاملات الرسمية سواء كانت إدارية أو اقتصادية أو قانونية الخ دفع بها إلى مرحلة جديدة من مراحل تطورها التاريخي أدت إلى تطوير إمكانيات جديدة فيها وتمكينها من تحمل مسؤوليات اجتماعية وتاريخية مستحدثة ...

6. برأيك، هل تطورت اللغة الفصحى أم لا زالت على حالها ؟

لعل أفضل طريقة للإجابة عن هذا السؤال إجابة ملموسة هي أن نرجع إلى تجربتنا الشخصية كقراء لكتب الأدب العربي من مختلف العصور. كلنا قرأنا القليل أو الكثير من كتابات ابن

المقنع والجاحظ والتوحيدى وغير ذلك من الأدباء العرب القدماء ... وكذلك قرأنا القليل أو الكثير من كتابات نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وغيرهما من الأدباء العرب المعاصرين ... فإذا نظرنا إلى جميع هذه التجارب القرائية فهل نقول إنها كانت في لغة واحدة؟ يبدو لي أن الإنصاف يقتضي أن نجيب عن هذا السؤال بـ "نعم" و"لا" في آن . "نعم" لأنه من المقرر أن هذه الكتب جميعا مكتوبة "بالعربية" وأن الشخص الذي تعلم الكتابة والقراءة بهذه اللغة من المفترض أن يكون قادراً على مطالعة مثل هذه الكتب. "لا" لأننا إذا دخلنا في التفاصيل اللغوية لكتب المرحلتين اتضح لنا أنها مختلفة بعضها عن بعض في التراكيب والمفردات والأسلوب اختلافاً واسعاً. ولكن ليس في ذلك ما يدعو إلى الاستغراب إذا تذكرنا ما قلناه سابقاً عن اللغات الثقافية الكبرى : هذه اللغات تقاوم من خلال الكتابة والتفعيد النحوي والمؤسسات التعليمية تأثير الزمن الحتمي في تغييرها ولكن هذه المقاومة لا يمكنها أن تمحو كلياً هذا التأثير وهذا ما يفسر أن لغة كاللغة العربية الفصحى (أي المكتوبة) تبدو لنا اليوم في نفس الوقت على أنها مختلفة عن "الفصحى القديمة" وعلى أنها "الفصحى" على كل حال ...

إضافة إلى هذه الاعتبارات "الانطباعية" هناك أمر بديهي يعرفه الجميع وهو أن اللغة العربية الفصحى عرفت منذ عصر النهضة عملية "تحديث" متكاملة من قبل الأدباء والمجامع اللغوية وكذلك الصحفيين بقصد تزويدها بما كان ينقصها من المفردات الخاصة بجميع مرافق الحياة الحديثة .

7. ما هو دور النهضة في إحياء اللغة العربية ؟

لنفهم دور الحركة الثقافية (والسياسية أيضاً) التي سميت بالنهضة العربية الحديثة يجب أن نتذكر أولاً الوضعية التي كان فيها العرب (ولغتهم) قبل حدوث هذه الحركة مباشرة : كانت أغلبية الوطن العربي وخاصة قلبه المشرقي تحت سيطرة الأتراك العثمانيين منذ بضعة قرون وكانت اللغة العربية قد فقدت دورها كلغة رسمية في المنطقة لصالح اللغة التركية ولم تحافظ إلا على مكانتها كلغة دين. والعربية الفصحى - شأنها شأن جميع اللغات الثقافية - مصيرها مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجهاز الحكومي والمؤسسات التربوية الرسمية بحيث يعني عزلها عنها الحكم عليها بالموت البطيء. وهذا فعلاً ما كان قد بدأ يحدث في ظل الحكم العثماني.

وليس مستغرباً والحالة هذه أن حركة بعث اللغة العربية والنهوض بها لإعادتها إلى مكانتها السابقة كانت في الوقت ذاته حركة تقاوم السيطرة التركية العثمانية على البلدان العربية واكتست منذ البداية طابع القومية العربية. وليس مستغرباً كذلك أن من بين أنشط المناضلين من أجل هذه الحركة مسيحيي بلاد الشام إذ أنهم من حيث وضعيتهم كانوا يحسون أكثر من غيرهم بثقل الاضطهاد العثماني. وقد ركز هؤلاء على الطابع العربي لهذه الحركة لأن العروبة كانت القاسم المشترك بينهم وبين جميع العرب والفارق الحاسم مع الأتراك. كما ركزوا أيضاً على الطابع العلماني والنزعة "العصرية" لهذه الحركة للارتقاء بقضية النهضة العربية فوق كل اعتبار ديني أو طائفي.

هذا فيما يخص التيار الشامي لحركة النهضة العربية. وقد كان هناك أيضا تيار مصري يختلف عن التيار الشامي في كونه قد تطور تحت رعاية الدولة. وسبب ذلك أنه قامت في الديار المصرية دولة وطنية وإن كان قد أسسها ضابط من اصل ألباني، هو الخديوي محمد علي الذي كتب على نفسه تحرير مصر من السيطرة العثمانية وتحويلها إلى دولة حديثة من خلال فرض مجموعة من الإصلاحات الجذرية في نظام الحكم . ومن بين هذه الإصلاحات إعادة اللغة العربية إلى مكانتها كلغة رسمية وتحديثها عن طريق إنشاء دار للترجمة و تمويل ترجمة عدد من المراجع العلمية إلى العربية وإقامة مطبعة رسمية الخ ...

وهذان التياران للنهضة ما لبثا حتى تلاقيا وتعاضدا ، وعلى أثر الحرب العالمية الاولى وانهزام تركيا وانسلاخ العالم العربي عنها وتكون الدول العربية الحديثة كما نعرفها اليوم عادت اللغة العربية إلى وظيفتها كلغة رسمية في جميع هذه الدول وانتشرت حركة النهضة الثقافية واللغوية لتعم العالم العربي أجمع ...

8. غالباً ما يستخدم مصطلح الازدواجية اللغوية لوصف وضع اللغة العربية اليوم. هل تعتقد أن هذا المصطلح مناسب ؟

أول من استعمل مصطلح الازدواجية اللغوية لوصف الوضع اللغوي العربي هو المستشرق الفرنسي ويليام مارسيه (William Marçais) سنة 1930 وكانت المقالة التي استعمل فيها هذا المصطلح تتناول الوضع اللغوي في الجزائر الراححة آنذاك تحت نير الاستعمار الفرنسي. ولم يكن هدف المستشرق الفرنسي في تلك الظروف محض علمي بل كان يهدف إلى التذليل على أن " ذلك اللسان السامي الذي يعاني من ازدواجية لغوية لا علاج لها " ما كان له أن يطمح إلى أي دور في مستقبل الجزائر الثقافي أو السياسي . وربما كان يبدو للوهلة الاولى أن الوضع اللغوي في الجزائر يؤيد ذلك الوصف وذلك التكهن نظراً لأن سياسة الاستعمار الثقافية كانت مركزة على خنق اللغة الفصحى بتطويقها في دور ديني ضيق وبعزل اللغة الدارجة عنها بحيث ينقطع التفاعل الحيوي بين قائمتي اللغة العربية، الفصحى والدارجة ، وهو أمر كاف للقضاء على هذه اللغة في المدى الطويل . على أن مارسيه كان يجهل أو يتجاهل ما كان يجري في المشرق العربي من نهضة لغوية وثقافية والذي كان لا بد أن يؤثر في وضعية المغرب العربي عاجلاً أو آجلاً. ومهما كان من أغراض مارسيه وأمثاله في وصف الوضعية اللغوية في الجزائر المستعمرة فيمكننا أن نسلم بأن هذا الوضع الناتج عن سياسة استعمارية مدروسة كان فعلاً يشبه ما يوحى به مصطلح الازدواجية اللغوية الذي يعني أساساً أن هناك لغتين مختلفتين (وإن كانتا من أصل مشترك) تتقاسمان وظائف التواصل اللغوي الاجتماعية تقاسماً بيناً بحيث تحتكر كل واحدة مجموعة معينة من مجالات التواصل اللغوي .

وهذا المصطلح عاد واستعمله عالم الألسنية الأميركي فرغسون (Fergusson) سنة 1959 وهو يحاول تعميمه إلى عدد من الوضعيات اللغوية منها الوضعية العربية . ولكن فرغسون نفسه يؤكد أن مفهوم الازدواجية لا ينبغي أن يطبق تطبيقاً حرفياً خاصة فيما يتعلق بالعربية إذ يعترف أن بين القطبين الذين يصفهما بالفصحى المحض والدارجة المحض توجد أصناف

أخرى تتوسط بين هذين القطبين . وهذا ما حاول أن يوضحه الأستاذ بدوي سنة 1973 في دراسة هامة بعنوان "مستويات العربية المعاصرة في مصر". ومنذ ذلك الحين توالى الدراسات الهادفة إلى تقديم صورة واقعية للوضع اللغوي العربية وجميع هذه الدراسات، وإن اختلفت قليلاً أو كثيراً في تفاصيل تحليلاتها وفي حصيلة استنتاجاتها، إلا أنها تركز جميعاً على أن مصطلح ازدواجية اللغوية مهما كان مفهومه لم يعد صالحاً لوصف الوضعية اللغوية العربية الراهنة بعد أن تعمم في جميع أنحاء العالم العربي التعليم باللغة الفصحى وانتشر استعمالها في الصحافة وتعود الاستماع إليها وفهمها حتى الأميون من خلال الاذاعة والتلفزيون... والجدير بالذكر أن عالم الألسنية شبير الحسن اقترح في دراساته الرائدة في هذا الموضوع استعمال مصطلح جديد هو مصطلح "المتواصل اللغوي العربي" (The Arabic linguistic continuum) للدلالة على أن واقع التعامل اللغوي في الساحة اللغوية العربية اليوم يتسم بانتقال متواصل وعلى جميع مستويات الأداء اللغوي بين سمات لغوية تنتمي إلى السجل الفصحى وأخرى واضحة الانتماء إلى الدارجة إضافة إلى سمات "هجينة" نصف عامية ونصف فصيحة. ويحسن بنا هنا أن نشير إلى مفهوم آخر واسع الرواج في مناقشة هذه المسائل وهو مفهوم "العربية الوسطى" الذي يشير إلى شعور مستخدمي اللغة بأن هنالك "لغة" متوسطة بين الفصحى القحة والدارجة السافرة يمكن اعتبارها "دارجة مفصحة" أو "فصحى مبسطة" وهي وإن لم تستقر تماماً لتكون صنفاً لغوياً ثابتاً إلا أن دينامية التطور اللغوي الاجمالية في البلاد العربية توحى بقوة أنها الواقع اللغوي البارز ...

9. هل هناك لهجة عربية تقترب من الفصحى أكثر من اللهجات الأخرى ؟

اسمحي لي أولاً أن أقول لك بكل صراحة إنه ينتابني شيء من الارتباك أمام هذا السؤال ذلك لأن أغلبية العرب لديهم جوابهم الجاهز عنه وأن لم يكونوا أبدأ درسوا علم اللهجات العربية : فهذه المسألة مشحونة بأحكام تقويمية تعكس التصورات المسبقة للمتكلم العادي عن "ترتيب" اللهجات العربية على سلم تخيلي يقضي بأن أقرب اللهجات إلى الفصحى هي بالطبع أشرفها كما أن هذا الشرف يصيب المتكلمين بها. والذي يحاول أن يسبر هذا المجال من مجالات "اللسانيات الشعبية" (folk linguistics) سرعان ما يكتشف أن لأغلبية الناس جوابين في هذا الموضوع : الأول إن الأعراب (أي عرب الصحارى) لهجتهم أقرب ما يكون إلى الفصحى إن لم تكن مماثلة لها تماماً. والجواب الثاني هو أن لهجة المدلي برأيه هي أفصح اللهجات أو هي على الأقل أفصح من لهجة مخاطبه ...

أما الرأي القائل بأن لهجات الأعراب أقرب إلى الفصحى من لهجات الحضر فهو رأي قديم قد يسنده إلى حد ما ما نعرفه عن التاريخ اللساني الاجتماعي للعالم العربي (وقد ذكرنا سابقاً أن اللهجات البدوية حافظت على سماتها الفصيحة لمدة أطول من اللهجات الحضرية). وبالفعل تشير التحريات اللهجية إلى أن لهجات قلب الجزيرة العربية قد حافظت إلى اليوم على سمات لغوية "عتيقة" لم تحافظ عليها اللهجات العربية الأخرى . غير أن نفس التحريات تثبت أيضاً أن هذه اللهجات قد تكون في كثير من الأحيان طورت إلى جانب سماتها اللغوية المحافظة سمات أخرى تجديدية تبعتها كثيراً عن الأنماط اللغوية القديمة. وهذا في الحقيقة هو الواقع في جميع اللهجات : إذا حللنا بدقة أية منها سرعان ما نكتشف أنه طراً عليها

تحولات كثيرة أو قليلة بالقياس إلى وضعها القديم غير أنها قد تكون حافظت على بعض السمات القديمة المفاجئة أحياناً .

ثم إن هناك اعتباراً آخر فيما يتعلق بالقرب من الفصحى وهو أن هذا القرب قد لا يكون "وراثياً" بل مكتسباً عن طريق الاحتكاك والاقتراب. ومن هذه الوجهة فإن لهجة حضرية ومتطورة كاللهجة القاهرية هي بدون أدنى شك أقرب إلى الفصحى من أي لهجة بدوية نظراً لأن أهل القاهرة بقوا بحكم التاريخ في اتصال مستمر باللغة الفصحى وبالثقافة العربية المكتوبة خلافاً للقبائل البدوية ولقاطني القرى .

10. ما هو مستقبل اللغة العربية ؟

هذا سؤال خطير ولا أعتقد أن علم اللسان في حد ذاته يمكّننا من الإجابة عنه ... إلا أنه قد يساعدنا على ذلك إذا عرفنا كيف نستفيد مما يزودنا به من المعلومات عن الماضي وإذا عرفنا كيف نستنتج مما كان ما قد يكون ...

والجدير بالذكر أن الأديب العربي الكبير جبران خليل جبران قد تطرق بجرأة واستبصار إلى هذا السؤال وأجاب عنه جواباً أشاركه فيه تماماً (وأحث جميع من يهمهم هذا السؤال على الرجوع إلى نص جبران النبيه¹) ...

وإذا كان لا بدّ من أن أرد عن هذا السؤال بكلماتي الشخصية فقد أقول إن مستقبل العربية مرتبط كل الارتباط بمستقبل أهل العربية : فإذا تابع أهل العربية مسيرتهم نحو التقدم الثقافي والتطور الاجتماعي والاتحاد السياسي سايرتهم اللغة العربية وتقدمت وتطورت وتوحدت. أما إذا تخلفوا ثقافياً وتقهقروا اجتماعياً وتشتتوا سياسياً فسوف تسايرهم اللغة العربية فتتخلف وتتقهقر وتتشتت.

غير أنني متفائل ...

¹ ونلفت انتباه القارئ الكريم إلى أنّ نص مقالة جبران في متناوله في هذا الموقع بالذات ...